قصة البخت النـــائم

للشاعر عثمان علمى

— ٣ —

الملك : وهنـــا رقَّ له قلبُ الملكْ وأحسَّ الصدقَ فى أقواله
إن إحسانى وعطفى شملكْ أيها الغامضُ فى أحواله
فاذا حققتَ يوماً أملكْ ووجدتَ البختَ فى إقباله
عُدْ الينا بعده كى نسألكْ ما الذى شاهدته من حاله
أصدوقٌ هو فى أقواله
أو كذوبٌ هو فى أقواله

ثم لا تنسَ إذا قابلتَهُ بعد أن يصحوَ أن تسأل عنّى
قل لهذا البخت إن حادثتـــه ما الذى يعلم من حالى وشأنى
إن لى ملكاً اذا شـاهدته قلتَ فيه انه جنّةُ عـدن
وتلطفْ أنت إن ساءلتـــه عن حياتى والذى أبصرتَ منى
مَلِكٌ بالعدل للأمـــة يبنى
مجدها لم يطو من حقدٍ وضغنِ

وأسأل البختَ : أما من سببِ لامى قلبى فانى لستُ أدرى
غير همٍّ دائبٍ فى طلبى وشجون كدن أن يذهبن صبرى

لست أدرى كيف يحمى غضبى دون أن أزعج فى ملكى بشرّ
وحياتى غايةٌ فى العجبِ رغم ما قدنلتُ من جاهٍ وقدرِ
ولقد ضاق بهذا الملك صدرى
فتى أهدأ فى سرّى وجهرى

أبصرُ الايامَ فى عينىَّ سودا وأرى الدنيا بعين الحاقدِ
ملَّ قلبى الواجدُ العانى الوجودا وَعَدَتْ نفسى كنفس الزاهدِ
لا أرى فى هذه الدنيا سعيدا خُلق الناس بكونٍ فاسدِ
وأساهم أين كانوا ان يبيدا رجع الكلُّ بهم خالد
ولَدٌ يشقى شقاءَ الوالد
وتساوى هابطٌ بالصاعدِ

أين ألقى راحتى الكبرى ولى فى جلالِ الملكِ ما ليس لدونى
وحياة الملك زادتْ مللى كلما عشت بها زادت شجونى
لم يعد لىَّ بينها من أملِ فى وجودى فتى تهدا ظنونى
ومتى يبرحُ عنى وجلى ومتى ينعم قلبى بالسكون
كدتُ أن أفقد فى عمرى يقينى
ورأيت العيشَ فيه كالمنون

يحيى : قال ـ هذا لك يا خيرَ البشرْ أسألُ البختَ فبختى يعلمُ
فإذا ما عدتُ يوماً بالخبرْ زالَ عن نفسك هذا الالمُ
إنما الايام بالناس تمرُّ وحياةُ الناس فيها حلمُ
حلمٌ يزعج والدنيا كدرْ أىُّ فرد من أذاها يسلمُ
وعميقٌ سرها لا يُعلمُ
وغبىٌّ الناسِ فيها ينعمُ

وسعى يحيي الى غايته في سكون ومضى في حاله
لم يفكرْ قطُّ في راحته لا ولا دار الهدى في باله
يعملَ الفكر على عادته ويثيرُ الهمُّ من بلباله
غير راضي النفس عن حالته تبعثُ الآلامُ من آماله
صوراً تترك في أمناله
ما يُبين العزمَ في اعماله

كلما فكر في حال الاميرِ كيف لا يرضيه ملكٌ واسعُ
أتُرى يزعجه صوت الضمير أم بملكٍ غير هذا طامعُ
ملكٌ ينعم في ظل القصور وافرُ النعمة فيها وادعُ
قال : أنىَّ لي بمخلوق شكور لم يَتُحْ لي في الحياة القانعُ
أين في الدنيا القريرُ الوداعُ
إن يكن فيها مليك جازعُ

موقفٌ من عجب حيَّرهُ وأثار الشكَّ في أعماق قلبهْ
ملك في مجده ما سرَّه كلُّ ما شاهد من مجد بقربه
أيُّ شر في الهوى أبصرهُ تركت آثاره جرحاً بلبه
أيُّ حال في الورى نفره ملكه الواسع أو كفران ربه
ربما أحزنه سرٌّ بقلبه
فهو لا يذكر لي أسباب رعبه

وحياة الملك في بهجتها إن بدتْ يوماً لمن يجهلُها
تأخذ النفسَ على غرتها وتُريها كلَّ ما يذهلُها
توقظ الألباب من غفلتها وترى الأنفسَ ما ينقلُها
وتحسّ النفسُ من هيبتها رهبةً لا رهبةٌ تعدُلها

من حياةٍ هى لا تعقلُها
وجلالٌ وافرٌ يصقلُها

ومضى يحيى وحيداً ما له ... من أنيسٍ غير تلك الفِكَرِ
يلعنُ الدنيا ويبكى حاله ... ثائراً من ضرباتِ القدرِ
يوقظ الصبحُ به آمالهُ ... والدجى يسقيه كأسَ الحذرِ
لم يدعْ وقعُ الضنى أوصاله ... سالماتٍ وانثنى بالبصر

منه يُطفى نورَهُ بالكدرِ
وغدا يحيى ضعيفَ البصرِ

ما الذى يرجوه من طول العنا ... بعد هذا السفر المرِّ الطويل
وهو لليوم حزينٌ ما جنى ... غير ألوانٍ من الهمِّ الثقيلِ
فاذا ما ذكرَ البختَ انثنى ... غاضباً من رقدة البختِ الضئيلِ
فهو أقصى أهله والوطنا ... عنهُ واختطَّ له شرَّ سبيلِ

ورماهُ البختُ فى شرٍّ وبيلِ
ما له أنَّى تولَّى من مثيلِ

ورأى يحيى قبيلَ المغربِ ... شبحاً أسودَ فى ثوبٍ قذرْ
قال : يا ويحى أهذا طلبى ... أم شقاءٌ آخرٌ لى ينتظرْ!
ضلَّ بختى بى فهل من سببٍ ... لهدى نفسىَ فى هذا السفرْ
سفرٌ قد هدَّنى من تعبٍ ... دون أن أعلم للبختِ مقرْ

سفر طالَ ولكن لم يذرْ
لحياتى فى المنى غير أثرْ

وسعى نحو مكانِ الشبحِ ... فرأى شخصاً ضعيفاً راقدا

راقداً من تعبٍ لم يبرحِ قالَ: هل أوقظ هذا الهاجدا؟
ثم نادى مرةً، لم يُفلحِ في الندا، إذ ظنَّ هذا جامدا
ثم نادى ثانياً، لم ينجحِ في نداه، ثم هزَّ الساعدا

ثم هزَّ الجسمَ جساً باردا
فانثنى الراقدُ حيّاً قاعدا

قال: من أنت وما هذا الكرى أيها النائمُ؟ ما هذا الرقادْ؟
قم ويكفيكَ رقاداً ما ترى ان طول النوم يقفوه السُّهادْ
إن نوماً خالداً تحت الثرى وإذا نحن مضينا لا نُعادْ
هكذا المشهود من حال الورى غايةُ العمر انتهاءٌ ونفادْ

وحياة الناس سعيٌ وجهادْ
ليس يجديهم هجودٌ ورقادْ

فاستوى الجالسُ في جلستهِ وعلى عينيه آثارُ الوسنْ
ورنا والنومُ في مقلتهِ عالقٌ بالجفن من طول الزمنْ
لا يلوح الخيرُ في نظرتهِ أو على هيئته شيءٌ حسنْ
لبث الجالسُ في دهشتهِ لحظةً في صمته حتى اطمأنْ

وكأنَّ الوجهَ منه وجهُ جِنْ
وهو في جلسته مثل الوثنْ!

قال يحيى في اضطراب: أنت منْ أنت لا تعقلُ أم أنت صنَمْ
وغريبٌ أنت من أيِّ وطنْ أنت ياهذا أجبني ثم نمْ
أنت إنسٌ مثلنا أم أنت جِنْ وسميعٌ أنت أم أنت أصمْ
حرتُ في أمرك قل لي أنت منْ أنت راعٍ فاذن أينَ الغنمْ

أم طريدٌ انت من ثارٍ ودمْ
أم تمادى بك فى الدنيا الألمْ؟

البخت : قال يا يحيى ألا تعرفُنى ؟ إننى بختُكَ يا يحيى اطمئنْ !
بختك النائمُ قد أيقظتنى من سباتى وتجشمتَ المحنْ
وأنا اليوم وقد انقذتنى بالمنى والعزم من طول الوسنْ
أنا صاحٍ لك لا يمنعنى عن أمانيك صعابٌ أو زمنْ
سترى السعد من الآن فكنْ
عند ظنى لا تخيِّبْ لىَ ظنْ !

إننى أعلمُ ما لا تعلمُ أنا سرٌّ لم يذعه القِدَمُ
قد جرى بى مذ خلقت القلمُ لك فى الغيبِ وما يجترمُ
كاتبُ الغيبِ وما يعتصمُ منهُ مخلوقٌ ولا يُسترحَمُ
قِسَمُ : هذا سعيدٌ ينعمُ أو شقىٌّ أو جهولٌ مجرمُ
كلُّ ما فى الارضِ هذا قِسَمُ
ليس من قوّتها مُعتصمُ !

إيه يا يحيى وقد أيقظتنى عُدْ ولا تخش شقاءً أو تخفْ
أنت كم جهلاً بسرّى لُمتنى دون أن تعرف ما مثلى عَرِفْ
كلما صادفتَ شراً زدتنى لعنةً وازددتَ فى الغيظ سخفْ
وتجاوزتَ إلى أن جئتنى بعد أن أصبحتَ فى حكم التلفْ
عُدْ ودع عن نفسك الحيرى الاسفْ
عُدْ فإن الوقت يا يحيى أزفْ !

أنت بعد اليوم فى ظل السلامِ أنا أرعاك بعين لا تنامُ
أنا حاميك ومثلى خيرُ حامى لك حتى يتولاك الحِمامُ

لا تخف فى موقف أىَّ انهزام لاولا يزعجك فى الدنيا احترامُ
لك فى اليقظةِ أو عند المنام حارسٌ يرعاك منى لا ينامُ

كل أيامك سعدٌ وابتسامُ
ليس ينبوعك قصدٌ أو مرامُ

فاستمع لى إننى أنصحكا فاحفظ النصح ولا تكثر كلاما
لا ، ولا تشك فقرٌ من شكا حظَّه أو أوسع الدنيا كلاما
واذا لاحت الارض لكا فرصةً فازدد نهوضاً واعتزاما
وانتهزها إن من قد تركا فرصةً فى العمر لم يبلغ مراما

إن من عن فرص العمر تعامى
لم يَعُدْ يملك فى العمر زماما

لا تدعْ من فرصةٍ قط تمرْ واذا ضاعت فلُمْ نفسكَ لُمْ
أنت إن ضيعتها ضعتَ هدرْ وتندمت وما يجدى الندمْ
زمنٌ قدّره فيها القدرْ زمنٌ قاس سريع لم يدمْ
فاذا ولتْ تولاك الكدرْ واذن تدركُ ما معنى الألمْ

قم اذن واسع الى شأنك قمْ
لا ترع يوماً ولا تجزع لهمْ

يحيى : قال ـ يا بختى لقد أفرحنى كلُّ ما قلتَ فهبنى منك صبرا
مرَّ بى دهرى وما أنصفنى لا ، ولم يجعل لمجهودىَ قدرا
وركبتُ الصعب ، ما أسعدنى لحظةً بل زاد بى فى العيش سخرا
ولقد صادفت ما أحزننى ولقد ضقت بهذا الكون صدرا

كلما ازددت على الايام خبرا
زدت من قسوتها حزنا وقهرا

أيها البختُ وهل تعلمُ ما نالنى فى سفرى من تعبِ
أنت لو تدرك ما حالى لما كنتَ الا راحمى من كُرَبى
أعلى غير هدى أسعى وما كان لابدّ له من سببِ
سببٌ للسعد والنحس وما كان فى جدهما من لعبِ
والذى يفعمنى بالعجبِ
هو جهلُ النفسِ أصلَ السببِ!

كيف أرتدُّ الى أرض الوطنْ دون أن أحسب ما سوف ألاقى
فى طريقى أسدٌ قاسٍ خشنْ جائعٌ خلصنى منه نفاقى
هل دواءٌ يبرئُ الجائعَ مِنْ جوعهِ اذ كره وقتَ التلاقى
فاذا ما سكنَ الداءُ سكنْ وانتهى عن ضررى أو عن لحاقى
فهو قد قابلنى دون اتفاق
ولقد فارقته بعد اتفاق!

ثم لاتنسَ سؤالَ الشيخ عنْ كنزه وهو مقيمٌ فى انتظارى
وهو مخلوقٌ عجيبٌ لم يكنْ ابداً إلا مخوفاً فى القفار
هجرَ الناس وفى القفر سكنْ مفرداً بين جبالٍ وصحارى
وحياتى لو تغافلتُ ثمنْ عنه إذ يبطش بى بطش اقتدار
فأجبْ يابختُ عن سؤلى حذارِ
من غريب لم يرد غيرَ خسارى!

وهناك الملكُ العالى أجبنى بالذى تعلمُه عنه وتدرى
ملكٌ آسٍ حزينٌ لم يدعنى ان أرى وجهك لا بعدُ عسرِ
ما الذى يذهب عنه كلَّ حزن دلّنى إن كنتَ تدرى أىَّ سرّ
واذا ما عُدتُ يوماً لم يلمنى هو فى جهلى ولا استصغر قدرى
كيف يقضى العمر فى خوفٍ وذُعرِ
وهو لم يعكفْ على اتيانِ شرّ

البخت ـ قال : لا تكثرْ من السؤلِ وسرْ أنا أُوحي لك ما سوف تقولُ
انا أرعاكَ فلا يزعجك شرْ أينما مِلتَ فبالسعدِ تميلُ
هكذا أودعَ بي سرّ القدرْ وهو سرٌ قصرت عنه العقولُ
سوف لا تبصرُ الا ما يسرْ لو سمعت النصحَ والنصحُ ثقيلُ
لا تُضع من فرصةٍ فهي تزولُ
ردُّها لو هي زالتْ مستحيلُ

ومضى يحي إلى حيث أتى فرحاً في سيره نحو الوطنْ
قائلاً للنفس : يا نفسُ متى أبلغ الأهلَ وفي اىِّ زمنْ
قلبُه من كلِّ همٍّ أفلتا يفتدي في طربٍ لا فَ شجنْ
لم يزل بعد الذي لاقي الفتى قلبُه قلبَ طروبٍ ما سكنْ
يأخذ الدنيا واقبالَ الزمنْ
بهدوءٍ وضميرٍ مطمئنْ

وإذا لاح له البدرُ تغنّى بالأماني للضياء الساطعِ
وإذا ما أشرقتْ شمسٌ تمنّى ان يرى الأهل بعيشٍ وادعِ
نسيَ الماضي بما مرَّ وافنى منه ما افنى بسوء الطالعِ
وإذا أبصر وجهَ الحسن أثنى شاكراً كفَّ القديرِ الصانع
ومضى عنه خيالُ الجازعِ
فهو مأخوذٌ بأمرٍ واقعِ

نبتَ العُشبُ على أعلى القممْ واثنى النوّارُ بين النرجس
وكأنّ الزهرَ في روضٍ رُسِمْ بيدٍ لم تقترف من دنسِ
كلما هبَّ على الزهرِ نسمْ عُطِّرتْ منه بروح قدسى
كادتْ الأرضُ ابتهاجاً تبتسمْ وتجلّت في الثياب السندسى

فى هضاب كلها لم تغرس
فى الفلا إلا بذوق سلس

صوَرٌ شتَّى من الحسن لها أيُّ وقعٍ فى فؤاد الناظر
أفعمت فناً وطارتْ بالنهى فى صفاءٍ بجناحىْ طائر
طرفُ يحيى عن جناها ما لها أو سها عن كلِّ حسنٍ ساحر
فهو نشوان بما لاح بها من رضاءٍ وجمالٍ باهر

فى هضابٍ رُصِّعتْ بالناضر
من كمال صنع ربٍّ قادر

لم يرعه القفرُ أو وحشتُه ورأى غيرَ الذى قد أبصرَا
صوراً هامت بها مهجتهُ وهى ما أنكرها واستنكرا
لم يكن إلاَّ الامى آفتهُ حينما عادى القضا والقدرا
ورأتْ فى ثورة مقلتُه غير ما يلقاه فى الكون الورى

كان أعمى فى ظلام لا يَرى
فانتهى النحسُ واضحى مبصرا

تضحك الدنيا له عن ثغرها كلما لاحت له بيضُ الامانى
ولكم جالتْ به فى شرِّها ورمته فى شقاءٍ وهوان
ولكم حيَّره من مكرها ما يثيرُ الحزنَ فى صفو الجنان
عجزت مهجتهُ عن قهرها ولقد يعجزُ عنهُ الثقلان

ظلَّ فى الماضى حزين النفس عانى
فانثنى يسعى على نور الأمانى

هكذا الأيام والدنيا إذا ما هيأت للمرء أسبابَ النجاح
لا يرى الانسانُ فى الدنيا ظلاما بل يرى الليلَ منيراً كالصباح

ويرى فى ضجةِ الدنيا سلاما ويرى فيها مجالاً للطماحِ
إن صحا بين المنى أو هو ناما لم يدرْ فى نفسهِ غيرُ الفلاحِ
دائم البهجة موفور المراح
يتلقى كلَّ أمرٍ بانشراح

ان لون النفس من لون الليالى وضياء الوجه من ضوء الفؤاد
وحياة الناس من حالٍ لحالِ والليالى رائحات وغوادى
ووجود الناس فيها كالخيالِ مهجٌ تمضى وعمرٌ للنفاد
والمنايا عن يمين وشمالِ يتلمسن أساليب الفساد
وقليلٌ بالغٌ بعض المرادِ
وكثيرٌ خائب بين العبادِ

لا ترع من قسوة الدنيا ولا تملأ الدنيا بكاءً وعويلا
واتخذ للخير فيها سبلا لا تظنَّ الخير فيها مستحيلا
وانهب العمر اذا ما أقبلا تحوك الحظُّ ولو كان ضئيلا
فرصٌ ضيَّعها من غفلا لم تجد ان أفلتت عنها بديلا
لاتكن فى هذه الدنيا خمولا
واتخذ فيها الى النُّجح سبيلا

واذا أبصرتَ من حظ خمودا أو رأيت الحظَّ لم ينهضْ بكا
لا تزد نفسك بالحزن جمودا لا، ولا تشف غليلاً بالبكا
متْ اذا ضيعك الحظ شهيدا للامانى فالردى خير لكا
من حياةٍ تبصرُ الايامَ سودا بينها والعيشَ فيها حلكا
لا تنم نوم خمولٍ هلكا
سلك الناس سوى ما سلكا

جدَّ يحيي ومضى يحيي طروباً بعد أن جرَّب ألوان الشقاء

لم يَعُدْ يحيى كما كان كئيبا ما حزينٌ وطروبٌ بسواءِ
عاد من رحلته صدراً رحيباً وفؤاداً لم يزد غير صفاءِ
ورأى من بهجة الدنيا عجيباً ما رأته عينه رهن العناءِ

فله فى سيره خيرُ عزاءِ
من جمالِ الأرضِ أوحسنِ السماءِ

وسعى حتى أتى قصر الاميرِ بعد ما جاس خلالَ البلدِ
فتلقاه ببشرٍ وسرورِ بعد أن صافح يحيى باليدِ
أبشيرٌ لىَ أو لى كنذيرِ قال قل لى لا تخفْ من أحدِ
قل لىَ الحقَّ ولو كان شعورى عكس ماتعرفه من مقصدى

هل أسى نفسىَ فعل الحسد
أم أساها علّةٌ فى جسدى؟

يحيى : يا مليكى إننى أحمل سرّا فاخل بى إن شئت أن تعلم سرى
أخرج الجند وهبنى منك صبرا ثم عدنى لا تجازينى بشرّ
واستمع لى لا تحقر لىَ قدرا والتمس لى يا مليكى كلَّ عذر
ان بحثى بخفىِّ الغيب يدرى وهوقد علمنى ما لستُ أدرى

فاستمع لى لا بغيظ أو بذعرِ
وتقبّلْ كلَّ ما أوحَى ببشرِ

الملك — قال : قل ما قاله البخت فانى لى قلبٌ خافق لم يطمئنْ
وأمان وسلام لك منى وجزاء لك فى البشرى حسنْ
هل سألت البخت فى لقياه عنى وصحا أم ظل يغشاهُ الوسنْ
ما الذى يعرف من حالى وشأنى ان لليوم فؤادى ما سكنْ

كل شىء وله عندى ثمنْ
فأبنْ لى شرَّ آلامى أبنْ!

بحيي : يا مليكى قال فى ردّ سؤالى عنك أنت امرأةٌ مثل النساء
لا يُساس الملك الا بالرجال هكذا تقضى تعاليمُ السماء
ضرب الله لنا خيرَ مثال فالدجى والصبح ليسا بسواء
إنّ فى تبديلها نيل المحال ليس فى تغييرها غير العناء
كل من يبرأ من داء بداء
ما له بين البرايا من دواء !

فاتركى مظهرَك القاسى وكونى حيث كلُّ الخير فى صدق المظاهرْ
والبسى ثوبك فى ظلّ السكونِ وابعدى عن شجنٍ للنفس قاهرْ
لم يغير طبعهُ أىُّ فطينِ كيف يخفى الحق عن مقلةِ ناظرْ
زوّدى نفسك بالحق المبين لا يضير النفس عند الحق ضائرْ
وارجعى كامرأةٍ فالكذبُ غادرْ
وضياءُ الحقّ مثلُ الصبح سافرْ

ما لأنثى مثلُ ما للرجل طبعُها لو فطنتْ غيرُ طباعهْ
فهى لا تحسنُ غيرَ الوجل وهى لا تقوى على مثل صراعهْ
ولها فى عمرها من عملِ غير ما يعمله صلبُ ذراعهْ
وهى لا تطربُ إن لم تنسلِ وهى لا تقوى على غير اتباعهْ
وهى فى مقلته بعضُ متاعهْ
وهى لا يعجبها غيرُ دفاعهْ !

كلُّ هذا كان من أسباب همكْ للاسى أصلٌ وللحزنِ سببْ
هكذا فاستبعدى عنصرَ غمّكْ ليس فيما قلتُه أىّ عجبْ
واظهري بالمظهر المجدى لرسمك انّ من غيّرَ طبعاً لم يُصِبْ
ما خفى ما قلتُه عن بعضِ علمكْ لا ، ولا جئتُ بمينٍ أو كذبْ

أبعدى نفسك عن هذا النصبْ
وخُذى زوجاً أميناً فى النسبْ

تَوجّى الملكَ أمينا عاقلا واجعليه لك زوجاً وأبا
رجلاً فى كل شىء كاملا مستقيماً ليس يدرى التعبا
لم يكن غِرّاً ضئيلا جاهلا جرَّب الايام فيما جربا
وادعَ النفس شجاعاً باسلا لا ضحوكاً ، لا ، ولا مكتئبا
إن دعته النفسُ للظلم أبى
وإذا أبرم أمراً ماكبا

الملكة : جئتَ لى بالحق لا بالكذب أيها الذاكر لى من صدق بختهْ
لم يكن غيرىَ نسلٌ من أبى نخشى أن يذهب الملكُ بموتهْ
وأبى الا بقاء الملك بى وخلود التاج والمجد ببيتهْ
فدعانى ولداً فى نسبى وهو أخفى الحق عن شعبى بصمتهْ
ثم وليت مليكا بعد موتهْ
ومضى والسرُّ مرهونٌ بوقتهْ

فاذن أنت الذى يصلحُ لى إننى أهواك من كل فؤادى
كن معى زوجاً وحقّقْ أملى إن هذا هو لى اقصى مرادِ
وإرعَ لى مُلكَ أبى واحفظه لى وارقَ يا يحيى معى عرش بلادى
كن معى انت ولا ترتحلِ وغداً فى الناس يا يحى أُنادى
بك فى قومى مليكاً فى بلادى
باسمك الميمونِ يدوى كل نادى

لا تخيبْ لىَ يا يحى رجاءا وتذكر كل ما مرَّ بعمركْ
سترانى كيف أفديك وفاءا وترى قومىَ قد هاموا بذكركْ

فحياة لم تزد إلا صفاءا وبلادٌ همُّها إعلاءُ قدرِكْ
ونعيمٌ لم يفض إلا بهاءا كجزاءٍ لكَ يا يحيى لصبرِكْ

لاتضع من غفلةٍ فرصةَ عمرِكْ
ولك الأمر وإنّى رهنُ أمرِكْ

يحيى — قال يحيى : إننى لا أقبلُ كلَّ ما قلت فبختى قد صحا
وهو يرعى كلَّ ما قد أعملُ وإذا أفسدتُ أمراً أصلحا
ملءُ قلبى فى حياتى أملُ دونه الملكُ إذا ما نجحا
إنّ حظى فى حياتى مقبلُ خابَ من يقنعُ أو ما طمحا

وعلى من شئته أن يفرحا
فاتركينى ! إنَّ بختى قد صحا !

الملكة : كيف لا تقبلُ يا يحيى رجائى أىُّ مجدٍ بعد هذا ترتجى ؟!
ترفضُ التاجَ بكبرٍ وإباء وهو أقصى غايةٌ للمهجِ
إنما تسعى على غير إهتداء فى ظلامٍ دامسٍ لم يُبلجِ
هل ترى أحسنَ منى فى النساء أمْ بملكى أنت لم تبتهجِ ؟!

أنت لم تنهج قويمَ المنهجِ
فامضِ عنى بسلامٍ واخرجِ !

ثم حيّا ربةَ التاجِ وسارا دون أن يحسبَ للآتى حسابا
زاعماً أن الذى كان انتصارا والذى أبرمه كان الصوابا
لم يفكر، لا، ولا شاء انتظارا أسدل الحقُّ على العقل حجابا
أمّلَ المسكينُ آمالاً كبارا دونها الملكُ إذا ما الملكُ طابا

وهو لم يفتح من الآمال بابا
أخطأ المسكينُ رأياً ما أصابا

نسىَ الماضى وما صادف فيه من صعابٍ وشقاءٍ وسقامِ
لم يُحدّدْ فى المنى ما يبتغيه كلُّ ما صادفه دونَ المرامِ
لم يفكرْ بعد فى أىِّ كريه فهو ما فكّرَ إلاّ فى السلامِ
كيف والبختُ صحا وهو يفيه أينما كانَ بآمالٍ عظامِ

كيف يرضى بقليلٍ من حطامِ
بينها ملكٌ عظيمٌ مترامى ؟!

وتمادتْ نفسُ يحيى فى العنادِ خيَّمَ الحمقُ عليها والجشعْ
نسىَ النصحَ فما أصغى لهادى وتجلتْ فيه آياتُ الطمعْ
طمعٌ لم ينم فى جوِّ السدادِ وغرورٌ بهوى النفس اندفعْ
والذي يبرح فى غيرِ اقتصادِ من أمانيه بما يخشى صُرِعْ

ما له من صاحبٍ غير الجزعْ
والذى لا يسمعُ النصحَ وقعْ

والذى ينسى التجاريبَ كبا وأضاع النفسَ فى العمر هبا
والذى لم يتخذها سببا فى طلاب النجح يوماً تعبا
والذى يعمى عن النور نبا عن سواء الحق مهما دأبا
طالما عانى الامى وانتحبا من أبى غير الذى الحظهُ أبى

والذى عادى الليالى نكبا
بيدٍ تمحو الذى قد حسبا

أتُراه بعد أن ودّع يحيى بهجة الملك قريرَ النفس ضحى
وهو لم يكسب من السالف شيئاً لا ، ولم يجن من الحاضر ربحا
كم سعى حتى أضاع العمر سعيا كادحاً يزداد فى الأيام كدحا
وهو فى ضوء المنى يسعى ويحيا دون أن يبلغ رغم الجهد ربحا

أترى لم يدَّكر للبخت نصحا
فطوى إلا عن الاحلام كشحا؟

أترى يحيي طروبا بهجا أم ترى عاوده صوتٌ خفى
هامسٌ فى نفسه بين الدجى همسَ من يبعث روحَ الاسفِ
ها هو الليل على يحيي سجى هل تُرى ظلَّ حليف الصلفِ
أم تمادى الليـل حتى أحرجا قلبه ، أم بالاسى لم يعصف ؟

كم بجنح الليل من سرٍّ خفى
يبلغ النفسَ حدودَ التلف !

حينما تلتفت النفسُ الى صُوَرِ الماضى بعين الحاضر
وترى الآمالَ صارت مللا أو تلاشت فى الزمان الغابرِ
أو ترى العمرَ تولَّى عجلا بين أشجانٍ وهمٍّ قاهرِ
دون أن تبلغ يوماً أملا فيه أو فرصة سـعد ظاهرِ

يا ضياع النفس بين الحاضرِ
بيـد الذكرى وبين الغابرِ!

وهنـا أطرق يحيي أسـفا فى سكون الليل إطراقَ الاسى
فلقد أحيا به ما سلفا هامسٌ فى نفسه قـد همسا
قائلٌ : يا أيها المرء كفى غفلةً ! كم من غبيٍّ تُعِسا
أنت ضيَّعتَ الامانى سرفا وتساوى بك من قد يئسا

والعمى إن هو غال الانفسا
يتساوى الصبح فيها بالمسا

أرفضتُ التاجَ عن رأيٍ حكيمٍ أم رفضتُ التاجَ عن رأيٍ سقيمِ
فرصةٌ ضاعت فيا نفس أقيمى بعدها يا نفس فى ظلِّ الهمومِ

هل سواها ؟ إننى غير عليم وصروفُ الغيب كالليل البهيمِ
ربما عُدت الى بؤسى القديم إننى يا مهجتى جدّ مسلومِ
هل شقاء وأسى مثلُ النعيمِ
ومليك قادر مثل العديم ؟!

ضاع من ضيَّع فى العمر الفرصْ فهو لن يلقى سواها عوضا
وهو لا يرجع الا بالغصص أينما حلَّ وأيان مضى
بالغ أقصى الأمانى مَن حرص وأضاع المفرطون الغرضا
ان من لا يقنص الوقتَ قُنص وأذلته تصاريف القضا
وكذا العمر كبرق أومضا
فاذا لم تُعْنَ بالعمر مضى

ويح نفسى ما لها عادَ أساها ويح عينى ما لها جفَّ كراها
إن نفسى لم يفارقها مناها ومنى نفسىَ ما عشت ضياها
وجلال الملك ما نال رضاها لا ،ولا التاج الذى يرضى هواها
فمنى إمَّا عددت لى مشتهاها فلتذق من حزنها كأس رداها
فرصة ولَّت وفى العمر سواها
فرصة تبلغ بالنفس رجاها

غير أنى قد صحا بختى وقاما وهو يحمينى ويرعى أملى
لستُ ألقى فى الورى الا سلاما أينما سرتُ فبختى قِبَلى
فعلا م الخوف والوجدُ علاما وهنائى هو فى مستقبلى
أوسعتنى النفسُ فى أمرى ملاما وبدت قسوتها فى جدلى
سوف أمحو فى حياتى وجلى
إن أطال الله فيها أجلى

ظل يحى بين يأسٍ وأملْ لم يودّعه اصطبارٌ أو جلدْ
لم يزعزعه من النفس جدلْ بين أخذ من أمانيه وردْ
لم يساوره من الفكر كللْ بعد أن فارق أنوار البلدْ
لا، ولم يقعده فى السعى مَلَلْ لا ، ولا فى طلب المجد زهدْ
كلما جدت به الآمال جدْ
ما انثنى عما تمنى أو جحدْ

وعلى بُعد رأى الشيخ المهيبا واقفاً وقفةَ شرٍّ فوق تَلْ
قال يحيي : ربِّ ألهمنى نصيبا من صوابٍ واكفنى شرَّ الزللْ
وسعى حتى غدا منه قريبا سعى من يحمل فى النفس الوجلْ
ثم حيّا ذلك الشخص العجيبا بابتسامٍ وهو بالخوف ثملْ
قائلاً فى نفسه لما وصلْ :
ربِّ كن لى واكفنى شر الرجلْ!

الشيخ : فرنا الشيخ له فى حذرٍ قائلا : ماذا رأى البخت لنا ؟
هل وجدتَ البخت أم لم تعثرِ بالذى أمَّلته بعد العنا ؟
وسألت البخت أم لم تذكرِ حالنا للبخت او أهملتنا
ها هو الكنز كسرٍّ مضمرِ لم يزل فى تربة الارض هنا
قل بحقٍّ ربما أخبرتنا
بجديدٍ يا فتى ينفعنا

يحيي : أيها الشيخ سألتُ البختَ عنكا قال: هذا قاتلٌ يخشى المصيرا
زاده الخوفُ من العالم شكاً فهو لا يلقى من الناس نصيرا
انت تخشى منهمو بطشاوفتكا فسكنت البيدَ منبوذاً حقيرا
انت لا تسكنها زهداً ونسكا إنما تخشى من الناس ثبورا

هكذا القاتل لا يبصر نورا
أينما يسعى ولا يلقى سرورا

دائم الخوف شديدُ الحذرِ دائبُ الحزنِ عميقُ الكدرِ
وافرُ الهمِّ مريبُ المنظر ثائرُ النفس حديدُ البصرِ
دَمُ من اهلكته لم يُهدَرِ عبثاً حتى ولو لم تظهرِ
ولقد صرتَ طريد البشر فاقضِ هذا العمر بين الحُفَرِ

واذا لحتَ لهم فانتظر
بطشةً تُدنى بعيدَ العُمُرِ !

فاتخذ إن شئت فى الناس خدينا يكتم الاسرار ما عشت امينا
يحفظ العهد ويأبى ان يكونا كلما عاشرته يوماً خؤونا
جرّب الايام والدنيا سنينا أودعته نفسه عقلا رزينا
كلما جربته ازددت يقينا فيه وازداد الفتى ودّاً متينا

صرّفا كنزكما لا تستكينا
واقضيا العمر صفاءً وسكونا

قسّما كنزكما بينكما لك نصفٌ ولمن صادقتَ نصفُ
ليس يدرى الناسُ ما سرّكما لا ، ولا يفضحه غلٌّ وعنفُ
صرّفا ما عشتما كنزكما ليس يسعى بكما خوفٌ وضعفُ
هو يغشى الناس بالمال فما كان فى الناس له ظلمٌ وعسفُ

وكذا يحلو لك العيش ويصفو
أيها الشيخ ولا يغشاك خوفُ

الشيخ : قال إنى لأرى فيك خدينا لك نصفُ الكنزِ لو تبقى معى
لا تدعنى حائر النفس حزينا وامح من نفسىَ بعضَ الجزع
ما عجيبٌ ان أرى فيك أمينا لم يعش بالمين أو بالخدع

إن نفسي تعرف الشخص الخؤونا وهي فيمن جربت لم تخدع
ها هو الكنز فصرّفه معي
فهو إن ظلّ هنا لم ينفع

يحيي — قال يحيي : أيها الشيخ أفقْ أنت لا تعرف ما تبغيه نفسي
ان بختي بعد ما نام أرقْ وانتهى السالفُ من همي ويأسي
وصحا وهو بسعدي ينطلقْ وهو يحميَ من فقر وبؤس
فاستمع لي أيها الشيخ وثقْ إنني أفلتُّ من حزن ونحس
كيف تُرضيني بنصف أو بخمس
أو بكلّ الكنز لو كان لنفسي؟!

عُرِضَ الملك على نفسي فما رضيتْ نفسي بملكٍ واسعِ
أبنصفِ الكنز تغريني كما أُغريتْ نفسي بتاجٍ لامعِ
ثم ما ثارتْ لرفضي ندما لا، ولا كنت أسيَ بالجازع
ان بختي لحياتي رسما مجدها العالي بنورٍ ساطعِ
كيف أرضى بقليل ضائع
بعد ملك لا يُدانَى شاسعِ؟!

ثم حيّا الشيخَ في لطف وولى في ابتهاجِ الظافرِ المنتصر
زاعماً في نفسه حقاً وجهلا أنه جاوز حدّ الظفرِ
كيف يدري أنّه خابَ وضلاَّ وهو في نشوته لم يحرِ
بعد ما لاقى من الايام هولا ثم أولته صروفُ القدرِ
فرصاً ضيعها لم ينظرِ
كيف ضاعت وانتهت بالصعرِ

طلعت من بهجة الصبح البشائرْ وبدا من جانب المشرق نورُ
وطوى عن طلعة الحسن الستائرْ بيدِ فنّانةِ ربٍّ قديرُ

فاذا الكونُ بروحٍ منه عاطرْ يتجلى الحبُّ فيها والسرورُ
متعةُ الاعين فيها والخواطرْ وضياءٌ لدجى النفس ينيرُ
وكأن النفسَ عصفورٌ يطيرُ
أو كأن الصبحَ للنفس بشيرُ !

صورةٌ تبعثُ فى نفسِ الحزينِ هَدْأةَ الوادعِ فى ظلِّ السكونِ
تملأُ القلبَ بنورٍ ويقينِ وتزيلُ المرَّ من ماضى الشجونِ
وتبين الحسنَ حسناً للعيونِ ساطعَ الغرَّةِ فى شتى الفنونِ
بُعثتْ من رقدةٍ بعد المنونِ بيدٍ تقطر بالحسن الهتونِ

توقظ النائمَ من فنٍّ دفينِ
وتبين الفنَّ فى الحسنِ المبينِ

فتَّح الصبحُ على الكون بنورِ فيه آياتُ المنى عند الورى
وتجلى بسنى الله القديرِ وصحا الوسنانُ من سكر الكرى
وتراءى الخلقُ فى خير شعورِ يبلغُ الخيرُ به أعلى الذرى
هكذا الصبح بديعٌ فى البكورِ فيه للاعينِ أحلى ما ترى

ومن الصبح جميلٌ كالبشيرِ
ومن الصبح مريبٌ كالنذيرِ

هاك يحيى هبَّ فى الصبح حزينا خافق المهجة جمَّ الندم
ماعسى يارب هذا أن يكونا ؟ قال يحيى بلسان الألم
مالنفسى طفحت منى شجونا ولقلبى كالسعيرِ المضرَم ؟
ربما أبلغ فى يومى المنونا فلقد أبصرته فى حلمى

إننى أبصرت فى النوم دمى
يلغ الوحشُ به فى نهم !

لم يسر يحيى قليلا حينما لاح عن قرب له شخص الاسدْ
رِيعَ من منظره القاسى فما ترك الخوفُ له أىَّ جلدْ
قال : أدركنىَ يا ربّ السما وارعنى يا خالقى مما أجدْ
لا تُضِعْ يارب يوماً لى دما ربّ واجعل لأسى قلبىَ حدْ

ليس لى إلاّك يا ربّ فجُدْ
بخلاصٍ فعليكَ المعتمدْ !

أقبل الوحشُ عليه غاضبا صاخباً بالشر حتى اقتربا
قال : ما خلتك إلا كاذبا كيف غررتَ بمثلى كذبا
كنتَ فى أى مكان غائبا وصحا بختُك هذا أم أبى
إننى خلتك منى هاربا فتكلم ! هل عرفت السببا

سبب الجوع فجوعى ما خبا
زدتُ فى بُعدكَ عنى سغبا ؟!

وهنا حدّثهُ يحيى بما جدّ من رحلته طولَ السفرْ
ثم أوحى بالذى قد علما من حياة الوحش من خير وشرْ
قال : قال البختُ والبختُ كما قال يجرى بالذى قال القدرْ
فاستمع من نصح بختى حكما إننى جئتك منه بالخبرْ

هو سرٌّ فتقبّله كسرٌّ
ثم دعنى بعدُ فى حالى أمرّْ

قال إن شئتَ دواء السغب كلّ من الناس غبياً احمقا
دمُه يكفيك شرّ اللغب ويذود العظمُ عنك القلقا
ذاك ما قد قاله فارتقب ذلك الانسان إمّا طرقا
ان بختى صادقٌ لم يكذب لا تكذّبنى فبختى صدقا

ان يخـق بصواب نطقا
ولسانى ليس يدرى الملقا

وهنا انقضّ عليه الاسدُ قائلاً: انت الغبى الأحمقُ!
هـل ترى غيرك يوماً اجدُ صادقاً بين البرايا يصدقُ
فرصة أنت! أعنها أفقدُ؟ إننى انهى ضاعت أخرقُ!
أين من يحيى دمٌ او جسـدٌ طاح فيه الوحش الا خَرِقُ
بقيت بعد المنايا تنطق
انه هذا الغبىّ الاحمق!

وانتهى يحـيى من الدنيا ولمْ يجن من رحلته الا العدمْ
ما محا المـكتوبَ فى لوح القدمْ لا، ولا غيَّرَ ماخطّ القـلمْ
هكذا الدنيا حظوظٌ وقِسَمْ كلُّ حىٍّ حظه فيها رُسِمْ
خاطىء من يغتدي فيها بِهَمْ وغبىٌّ مَن تمادى فى الالمْ
وحكيمُ الناس فيها مَن علمْ
أنها كانت ولا زالت قِسَمْ!

(انتهت القصة)